أحاديث إصلاح القلوب

(١٩)

التفكر

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ**». رواه الطَّبرانِيُّ في معجمه، والبيهقيُّ في الشُّعب[(١)].

التَّفكُّر عبادة قلبيَّة عظيمة النَّفع كبيرة الأثر، لها من العوائد والفوائد ما لا حدَّ له، وفي القرآن آياتٌ عديدة مشتملة على الحثِّ على التَّفكُّر، وبيان عظيم شأنه وجليل قَدْره، وكبير عوائده وفوائده، وثناءٌ على أهله وبيانٌ لعلوِّ مقامهم ورفعة شأنهم؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرَّعد:٣]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النَّحل:١١]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الرُّوم:٨]، ويقول الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) رواه الطَّبرانِيُّ في الأوسط (٦٣١٩)، والبيهقيُّ في الشُّعب (١٢٠). وحسَّنه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (١٧٨٨).

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في الثَّناء على أوليائه المُقَرَّبين أولي الألباب مبيِّنًا عظيم مقامهم، وعلوَّ شأنهم وجمال تفكُّرهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

وهذا التَّفكُّر العظيم الَّذِي دعا الله عَزَّوَجَلَّ عباده إليه وحثَّهم عليه ورغَّبهم فيه مفتاحُ كُلِّ خير، وأساس كُلِّ فلاحٍ وصلاح، ومنبع كُلِّ فضيلة، وهو من عبوديَّات القلب العظيمة الجليلة، وهو ينقل الإنسان من الغفلة إلى اليقظة، ومن المعصية إلى الطَّاعة، ومن المهانة إلى المعزَّة، وينقله من الحقارات والدَّناءات وخسيس الأمور وحقيرها إلى معالي الأمور ورفيعها وعليِّها؛ ولهذا كان شأن السَّلف -رحمهم الله تعالى- مع هذه العبوديَّة شأنٌ عظيم وكلماتهم في بيان مقام التَّفكُّر وعظيم شأنه وجليل قدْره كثيرة ومتعدِّدة، ومن ذلك:

قول عبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا رَأْسُ هَذَا الدِّينِ وَصَلَاحُهُ إِلَّا التَّفَكُّرُ»(١).

وقال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفِكْرُ أَبُو كُلِّ بِرٍّ وَأُمُّهُ، وَمِفْتَاحُ خِلَالِ

(١) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانيُّ في كتاب العظمة (١٤).

الخَيْرِ كُلِّهِ»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّفَكُّرُ مِرْآةٌ تُرِيكَ حَسَنَاتِكَ وَسَيِّئَاتِكَ»[٢].

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ تَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ عَرَفَ أَنَّمَا لُيِّنَتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ»[٣].

وقال سهل: سمعت الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «تَفَكَّرُوا وَاعْلَمُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمُوا، وَلَا تَغْتَرُّوا بِالدُّنْيَا؛ فَإِنَّ صَحِيحَهَا سَقِيمٌ، وَجَدِيدَهَا يَبْلَى، وَنَعِيمَهَا يَفْنَى، وَشَبَابَهَا يَهْرَمُ، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ قَدْ تَابَعُوا بَيْنَ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ، وَلَيْسَ لِامْرِئٍ مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ مِمَّا نَوَى وَقَدَّمَ»[٤].

وقال سفيان ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّفَكُّرُ مِفْتَاحُ الرَّحْمَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَتَفَكَّرُ فَيَتُوبُ»[٥].

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفِكْرَةُ فِي نِعَمِ اللهِ مِنْ أَفْضَلِ العِبَادَاتِ»[٦].

---

(١) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانِيُّ في كتاب العظمة (٣٧).

(٢) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانِيُّ في كتاب العظمة (١٣).

(٣) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانِيُّ في كتاب العظمة (١٨).

(٤) رواه ابن الأعرابِيِّ في معجمه (١٦٩٣).

(٥) رواه أبو الشَّيخ الأصبهانِيُّ في كتاب العظمة (٣٩).

(٦) ذكره ابن القيِّم في مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٨٠).

والنُّقول عنهم في هذا المعنى كثيرة؛ لإنَّهم أدركوا مقام التَّفكُّر وعلوَّ شأنه ورفعة منزلته، وعظم نفعه للقلوب يقظة وصلاحًا.

فمَن تفكَّر في عظمة الله، وأنَّه عَزَّوَجَلَّ مطَّلعٌ على العباد لا تخفى عليه منهم خافية، سميعٌ بصير، عليمٌ قدير؛ فإنَّ هذا التَّفكُّر يمنعه من الوقوع في معصية الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

ومَن تفكَّر في الآخرة وأنَّها ارتحلت مقبِلة وأنَّها هي الحيَوان، وتفكَّر في نعيمها وما أعدَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأوليائه من عظيم المآب وجميل الثَّواب؛ فإنَّ ذلك يُحفِّزه ويدفعه لحُسْن التَّهيُّؤ وتمام الاستعداد ليوم المعاد.

ومَن تفكَّر في هوان الدُّنيا وحقارتها وسرعة زوالها وتصرُّمها؛ فإنَّه لن يجعلها أكبر هـمِّه ولا مبلغ علمه.

ومَن تفكَّر في الذُّنوب وعظَم خطورتها وسوء عواقبها على أهلها في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّه يحاذر من الوقوع فيها ويتجنَّبها.

ومَن يتفكَّر في العبادات وأنَّه إنَّما خُلق في هذه الحياة للقيام بها وتحقيقها؛ فإنَّه يجاهد نفسه على القيام بها على أتمِّ وجهٍ وأحسن حال.

ومَن يتفكَّر في هذه المخلوقات وما فيها من جمالٍ وآيات باهرات وحججٍ ساطعات وبراهين واضحات؛ أدخلت إلى قلبه العبرة والعظة.

والتَّفكُّرُ في آلاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ونِعَمه عبوديَّةٌ عظيمة تجعل القلب يقبِل

على الله خضوعًا وذُلًّا وإيمانًا بكمال الخالق وعظمة المبدع سبحانه، فهاهم أولوا الألباب وقد مرَّ معنا ثناء الله عليهم: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١] ويُثمر هذا التَّفكُّر تلك الدَّعوات العظيمات: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

ومَن لم يَشغَل قلبه بالأفكار النَّافعات والتَّفكير الَّذِي يعود عليه بالخيرات في دنياه وأخراه انشغل قلبه بأفكارٍ رديئة وتفكُّرٍ مذموم في أمور منحطَّة وأعمالٍ خسيسةٍ حقيرة؛ ولهذا يُشَبِّه بعض أهل العلم[١] النَّفس البشريَّة بأنَّ مثلها كمثل الرَّحى الَّتِي هي دائمة الدَّوران تطحن كُلَّ ما أُلقي فيها، فمَن وضع في هذه الرَّحى قمحًا وشعيرًا وجد طحينًا ينتفع به، ومَن وضع في تلك الرَّحى قذرًا أو حجرًا أو حصًى أو رملًا أو زجاجًا فلن يُحَصِّل منه طحينًا ينتفع به، وهكذا نفس الإنسان تدور بأفكار وأفكار ثمَّ ينبع عن تلك الأفكار إرادات وعزوم؛ فمَن كانت أفكاره وتفكُّره فيما ينفعه في معاشه ومعاده؛ فإنَّه سيمضي في هذه الحياة على خير حال، ومَن كانت أفكاره في أمورٍ حقيرة وأعمال دنيئة ويُخطِّط في أفكاره: كيف يعصي؟ وكيف يرتكب الآثام؟ وكيف يقع في الذُّنوب؟ وهكذا دواليك في أفكارٍ عديدةٍ خسيسةٍ حقيرة؛ كيف ستكون حال مَن كان هذا تفكره؟!

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيِّم (٢٥٤).

رأى عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحد رفقائه مُفَكِّرًا، فقال له: أين بلغت[١]؟ قال: «بلغت الصِّراط »[٢].

فشتَّان بين مَن يرتحل بأفكاره إلى التَّفكُّر فيما ينفعه في معاده ومعاشه، يتفكَّر في وقوفه بين يدي الله، ينظر في غده وحساب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر:١٨]، شتَّان بين مَن أفكاره تصل به إلى الصِّراط خوفًا وإشفاقًا، وبين مَن أفكاره تسبح في أوحال الذُّنوب وحقارات المعاصي سفولًا وإغراقًا.

نعم ما أحوجنا إلى أن نعالج أفكارنا، وأن نصحِّح مسارنا، وأن نجاهد أنفسنا على الواردات النَّافعة والأفكار القويمة الَّتِي تعود علينا بالنَّفع العظيم والخير العميم في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كلَّ وقت بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح والعود بالتَّذكُّر على التَّفكُّر والتَّفكُّر على التَّذكُّر وإلَّا أوشك أن تيبس»[٣].

وما أعظم الخسران وأشدَّ الحرمان لمَن أسلَم بيت أفكاره إلى الشَّيطان

---

(١) مثل ما نقول كثيرًا: أين وصلت يا فلان؟ أين سرحت؟ أين ذهبت؟

(٢) ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠).

(٣) أعلام الموقِّعين لابن القيِّم (١/ ١٣٤).

يصبُّ فيه وساوسه ويُملي له الشرَّ إملاءًا ويؤزُّه إلى المعاصي أزًّا ويدفعه إليها دفعًا؛ فهو مستسلمٌ للشَّيطان ومنقادٌ لوساوسه، وأفكاره توصف بأنَّها أفكار شيطانيَّة؛ ألا ما أسوأ هذه الحال وما أقبحها وما أشنعها.

إنَّ التَّفكُّر كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ودعا إليه عبوديَّةٌ عظيمة الشَّأن جليلة القدر، وحتَّى يحقق العبد هذا المقام يحتاج إلى أمرين:

أوَّلًا: إلى استعانة بالله جَلَّوَعَلَا.

وثانيًا: إلى مجاهدة للنَّفس؛

- بإبعادها عن كُلِّ بابٍ ومنفذٍ يجلب إلى قلبه أفكارًا رديئة وتصوُّراتٍ سيئة.
- ويحرص على كُلِّ المنافذ والأبواب الَّتِي تجلب لقلبه ما ينفعه ويعود عليه بالخير والفائدة في دينه ودنياه.

أرأيتم لو أنَّ شخصًا أسلم بصره ونظره وسمعه إلى مشاهداتٍ مُحَرَّمة وصورٍ نُهيَ عن النَّظر إليها ومشاهدتها وسماعات مُحَرَّمة؛ كيف ينشد مع ذلك لقلبه صفاءً ونقاءً وزكاء؟! وقد أوسع لنفسه المنافذ الَّتِي تجلب على قلبه واردات السُّوء وتجلب له أمور الشَّرِّ، أما مَن جاهد نفسه واستعان بربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فإنه يوفق لكُلِّ خير.

كم هو جميل بالمسلم في هذا المقام أن يستحضر ما ينفعه من تفكُّرٍ

سليم وتأمُّل قويم واتِّعاظ واعتبار وادِّكار، وهذا مقامٌ يطول شرحه لكن أشير إلى مثالٍ واحد، والأمثلة على ذلك كثيرة وقد مرَّ شيء منها.

أرأيتم لو أنَّ إنسانًا جائعًا اشتدَّ به الجوع ثمَّ وُضع بين يديه طعام شهيٌّ وأكل لذيذ يُحبُّه ونفسه تميل إليه، ثمَّ لما مدَّ يده إلى ذلك الطَّعام، قيل له: إنَّ هذا الطَّعام مسموم؛ إن أكلْتَ منه متَّ من ساعتك، أرأيتم وقد أيقن بأنَّ ذلك الطَّعام مسموم وأنَّ فيه هلكته أيضعُ يده في ذلك الطَّعام أو يكفّها؟ سبحان الله!! كيف يتجنَّب الإنسان طعامًا خوف مضرَّته!! ولا يتجنَّب الذُّنوب خوف معرَّتها يوم لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

«وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها: ما كان لله والدَّار الآخرة، **وهو أنواع:**

أحدها: الفكرة في آياته المُنَزَّلة وتعقُّلها، وفهمها وفهم مراده منها، ولذلك أنزلها الله تعالى، لا لمجرَّد تلاوتها، بل التِّلاوة وسيلة.

الثَّاني: الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمته وإحسانه، وبرِّه وجوده، وقد حضَّ الله سبحانه عباده على التَّفكُّر في آياته وتدبُّرها وتعقُّلها، وذمَّ الغافل عن ذلك.

الثَّالث: الفكرة في آلائه وإحسانه، وإنعامه على خلقه بأصناف النِّعم، وسعة رحمته ومغفرته وحلمه...

الرَّابع: الفكرة في عيوب النَّفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة

عظيمة النَّفع، وهذا باب لكُلِّ خير، وتأثيرها في كسر النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، ومتى كُسِرَت عاشت النَّفس المطمئنَّة وانبعثت وصار الحكم لها، فحيي القلب، ودارت كلمته في مملكته، وبثَّ أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهمِّ كلِّه عليه، فالعارف ابن وقته، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلُّها، فجميع المصالح إنَّما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبدا»[1].

فمثل هذا التَّفكُّر والتَّأمُّل ينفع الإنسان نفعًا عظيمًا في صلاح قلبه وفي إقدامه وإحجامه، وحبِّه وبغضه، وعطائه ومنعه، وجميع أموره.

اللَّهمَّ أصلح قلوبنا أجمعين، اللَّهمَّ آت نفوسنا تقواها وزكِّها أنت خير مَن زكَّاها أنت وليُّها ومولاها.

---

(١) الجواب الكافي لابن القيِّم (ص١٥٦).